الباب الرابع
في ذكر حاله مع الطلبة والأهل وغيرهم

وكان ﷺ متواضعا للجميع محسنا إليهم ، وكان يحتمل أخلاق الطلبة المغاربة والريافة وغيرهم ولا يحصل له [٢٤/ أ] الضجر ولا التبرم ويؤنسهم ويربيهم ويؤدبهم بلطف هذا مع كونه دائم الجلوس معهم .

وكان لا يشتغل غالبا إلا بالفقه ويرى أنه الأهم وتقدم ذلك ، وأنه كان يشغل في غالب أوقاته أنه يحصل له من الختمات والعبادة ما لا يحصل للمتفرغ لذلك وأنه كان يجالس الطلبة وغيرهم بظاهره وقلبه في الملكوت ، وتقدم قلة أكله ولباسه وأنه كان يقنع بالقليل .

وكان متواضعا للصغير والكبير طلق الوجه يلطف بأصحابه ويؤنسهم ويذكر ما يليق به بحيث ترى جماعة منهم أن كل واحد منهم هو المقدم عنده .

وكان يؤدب أصحابه ويعلمهم طرق الخير ويحدث بعضهم على ما في نفسه في بعض الأوقات .

وكان إذا سئل شيئًا وأراد فعله يقول : إن شاء الله ، أو : الله المستعان .

وكان يقول لمن ينفصل عنه : أنت في حفظ الله وأمنه .

وكان يدعو للناس بأدعية مختلفة .

قالت جماعة : وكان يدعو لنا بما نؤمله في نفوسنا .

وكان يضرب الأمثال والحكايات في الدرس المناسبة للحال ، وربما يأتي

للحكاية المضحكة ترويحا لقلوب أصحابه ويأتي بالأشعار بما فيه وعظ مناسب للحال كقوله :

يـــا أيهـــا الـــراضي بأحكامنـــا ... لا بـــد أن تجـــد عقبـــى الرضـــا
فـــوض إلينـــا وابـــق مستـــسلما ... فالراحـــة العظمـــى لمـــن فوضـــا
وإن تعلقـــــــت بأســـــــبابنا ... فـــلا تكـــن عـــن بابنـــا معرضـــا
فـــإن فيهـــا خلقـــا باقيـــا ... مـــن كـــل مـــا يـــأتي ومـــا قـــد مـــضا
لا يـــــنعم المـــــرء بمحبوبـــــه ... حتـــى يـــرى الخـــيرة فـــيما قـــد قـــضا

وكقوله :

أوليتنـــي نعـــما أبـــوح بـــشكرها ... وكفيتنـــي كـــل الأمـــور بأسرهـــا
فلأشـكرنك مـا حييـت فـإن أمـت ... فلتـشكرنك أعظمـي في قبرهـا

وكقوله :

إذا مـــات مـــن فـــوقي ومـــن دون ... وقـــد مـــات أقـــراني فكيـــف بقـــاء

وكقوله :

صـحبت بنـي الـدنيا فلـم أر منهم ... سـوى غـادر والغـدر حـشو ثيابـه
فجـردت مـن غمـد القناعـة مرهفـا ... قطعـــت رجـــائي مـــنهم بذبابـــه
فـــلا ذا يـــراني واقفـــا في طريقـــه ... ولا ذا يـــراني جالـــسا عنـــد بابـــه

وكقوله :

أنـــست بوحـــدتي ولزمـــت بيتـــي ... فطبـــت بعزلتـــي ونـــما الـــسرور
وأدبنـــي الزمـــان فـــما أبـــالي ... هجـــرت فـــلا أزار ولا أزور
ولـــست بـــسائل مـــا صـــح عقـــلي ... أســـار الجـــيش أم ركـــب الأمـــير

obeikandi.com

وكقوله :

الـنفس تكـره أن تكـون فقـيرة والفقـر خـير مـن غنـى يطغيهـا
فغنى النفوس هو العفاف فإن أبت فجميـع مـا في الأرض مـا يكفيهـا

وكان لا يأخذه في الله لومة لائم وقد وقع بعض أشياخه في شيء [٢٥/ أ] فاستشهد[١] الشيخ فقال : إن أنكر شهدت عليه ؛ أو كلاما هذا معناه .

وقال له مرة ـ على ما بلغني لما كلم بعض الطلبة بكلام غليظ : يا شيخ أنت رجل عالم ولكن ما أدبك العلم .

فأخبرت أنه لما قام سيدي الشيخ سبق صار شيخه يرعد ويقول : ردوا الشيخ عبد الله لئلا يخرج وقلبه متغير علي .

وحكي لي أن الأمير منكلي بغا دخل إليه يوما وقال : يا سيدي السلطان يريد أن يمسكنا فهل علينا حرج إذا خرجنا عليه ؟

فأخذ سيدي الشيخ طرفا من ثوبه وقال : هذا شيء لا أدخل فيه ولا أتكلم فيه بكلمة ؛ وسكت ؛ فلم يستجر الأمير أن يتكلم بعدها وقام .

وكان لا يبالي بالخلق قلوا أو كثروا لاستغراقه في الحق كما قال بعضهم :

وكل ملـوك الأرض تجهـد جهـدها فذا الملك ملك لا يبـاع ولا يهـدى
حـرام عـلى مـن وحـد الله ربـه وأفـرده أن يجتـدي أحـدا رفـدا
ويا صاحبي قف لي مع الحق وقفة أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا

ورأيته يوم مات سيدي الشيخ المبارك شيخ آثار سيدنا رسول الله ﷺ وقد أكب أهل مصر والقاهرة عليه وعلى تقبيل يده وازدحموا وألجؤوه إلى أن

(١) أي طلب للشهادة .

يطلع كودية وينزل لم يتغير .

وقال لي الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد الببائي ويعرف بابن قاضي ببا [١] أنه رأى الشيخ كذلك يوم مات سيدي الشيخ الصالح العارف بالله الكبير [٢٥/ ب] أبو عبد الله ابن الحاج قال : فقلت في نفسي : إن كان الشيخ بلغ رتبة الكمال فهو لا يتغير ؛ فلم يتغير .

ولذلك كان لا يلتفت لأبناء الدنيا ولم يلتفت لهم ولا يجري لأبوابهم وذلك إنما يكون لطلب رزق أو دفع ظلم والرزق الذي لك لا بد لك منه والذي ليس لك لو ركبت الريح خلفه ما وصلت إليه وقد قيل :

لو كان في صخرة في البحر راسبة ... صماء ململمة ملس نواحيها
رزق لنفس برأها الله لانفلقت ... حتى يؤدي إليها كل ما فيها
أو كان بين الطباق السبع مسلكها ... لسهل الله في المراقي مراقيها
حتى تنال الذي في اللوح خط لها ... فإن أتته وإلا سوف يأتيها

وأما الثاني فيعتمد فيه على قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة:٥١] ؛ ولأن تباديه تعالى لهم وشهود صنعه ولطفه اندكت اختياراتهم وسكتوا لقضاء مولاهم ولهذا قيل :

---

(١) أبو عبد الله ، محمد الببائي نسبة لببا (ببه) إحدى مراكز بني سويف بصعيد مصر ، تقي الدين الشافعي ، المعروف بابن قاضي ببا ، المتوفى سنة ٧٤٩هـ ، قال ابن قاضي شهبة نقلا عن الزين العراقي في وفياته : كان أذكر فقهاء المصريين له مع فقه النفس والدين المتين والورع ، وكان يكتسب بالمتجر يسافر إلى الأسكندرية مرتين أو مرة ويشغل بجامع عمرو بغير معلوم ، وكان يستحضر الرافعي والروضة ويحل الحاوي الصغير حلا حسنا وصحب الشيخ أبا عبد الله بن الحاج وغيره من أهل الخير وتوفي شهيدا بالطاعون . انتهى من طبقات الشافعية ، لابن قاضي شهبة :٣/ ٧٠ .

جـرى قلـم القـضاء بـما يكـون فـسيان التحـرك والـسكون
جنـون منـك أن تـسعى لـرزق ويـرزق في غـشاوته الجنـين

ولا يعيب على الساعي فعله بل هذا المعنى يفهمه أهله ، بل الطريق إلى الله تعالى كثيرة ، والناس مختلفون ، فمنهم من جبل على الرضى والتسليم ، وعدم تعاطي الأسباب ، ومنهم من جبل على الشفقة على عباد الله والسعي لهم وكل على خير ولكل وجهة هو موليها بل الولي الواحد قد يختلف حاله لاختلاف الوارد عليه [٢٦/ أ] .

ولهذا قيل للصوفية : الحال حامل لا محمول .

يدل لقولهم قصته عليه أفضل الصلاة والسلام في الإسراء لما فرض الله عليه خمسين ورجع إلى موسى وقال له : أنا أعلم بالناس منك عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله التخفيف ، فرجع فجعلها أربعين ، ثم مثله فثلاثين ، ثم مثله فعشرين ، ثم مثله فعشرا ، ثم خمسا ثم مثله فقال : سلمت ؛ وفي رواية : «**استحييت من ربي**»[(١)] .

لأنه لما حمله الحال الأول على الشفقة سأل ، ولما حمله الحال الثاني على التفويض سلم .

وكان مع عدم تردده لأحد وسؤاله لأصحابه يحصل لهم ببركته ما يرومون وينجحون مما يكرهون وسيأتي في الباب السابع ما نذكر بركته على أصحابه شيء من ذلك إن شاء الله تعالى .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٤٨ ، رقم ١٢٥٢٧) ، ومسلم (١/ ١٤٥ ، رقم ١٦٢) ، وأبو يعلى (٦/ ١٠٩ ، رقم ٣٣٧٥) .

وذكر لي بعض أهل الخير أن الطلبة جلسوا يوما بحضرته في التربة يذكرون حال الأمراء فسكت الشيخ عنهم ثم قال لهم : هؤلاء يعرفون حالكم أو يعرفون مكانكم ؟

فقالوا : لا ؛ فقال : فاذكروا من هو عالم بأحوالكم . فانتبه القوم .

وكان لا يذكر في مجلسه غيبة ولا فسوق ولا ما يقرب منهما .

وكان لا يحلف أصلا ، وكان لا يلقب بالألقاب المصطلح عليها بالديار المصرية غالبًا من : شمس الدين ، وناصر الدين وبدر [٢٦/ أ] الدين .

وكان لا يقوم لأحد إلا لبعض العلماء والصلحاء الأخيار الذين يعرف حالهم .

وكان يصافح الناس فإذا قبل المصافح يده لم يمنعه .

وهذا لأن الناس كانوا يكثرون عليه ويعلم أن قصدهم ذلك ، وأنه لو لم يمكنهم لنازعوه وتأذى بذلك .

وكانت صلاته الفرائض خفيفة لأن صلاة الأبدال كذلك .

وكان يقول إثر صلاة الصبح : اللهم اغفر لأمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، اللهم استر أمة محمد ، اللهم اجبر أمة محمد .

هذا دعاء الخضر من قاله كتب من الأبدال فقد قال الشيخ العارف بالله أبو العباس المرسى : رأيت ليلة كأني في سماء الدنيا وإذا برجل أسمر اللون قصير الطول كبير اللحية فقال : قل : اللهم اغفر لأمة محمد ... إلى آخره . هذا دعاء الخضر من قاله كل ليلة كتب من الأبدال .

قال فلما انتبهت أتيت إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي ~ تعالى فجلست ولم أخبره بشيء فذكره وقال هذا دعاء الخضر من قاله كل يوم كتب من الأبدال .

وكان لا يتوسوس في طهارته وصلاته .

وكان لا يأكل أبدا شهوة ، ولا يلبس أبدا حسنا ، بل يأكل فضلة الأهل والصغار كما تقدم ، ويكتسي بالقماش الوخش كما تقدم .

وجاء له يوما رجل بثلاث كمثرايات فقال له : يا هذا بكم اشتريتهن ؟

فقال : بثلثي درهم ؛ فقال : اذهب [٢٧/ أ] وردهن واشتر بالثلثين خبزا وتصدق به فإنه أفضل .

ولعدم اطلاعه لشهوة نفسه ما كان يتزوج إلا من كان يقصد فيها مقصدا جميلا .

وتزوج ~ تعالى ثلاث نسوة كل واحدة بعد موت الأخرى ، أما الأولى فكانت متجالة [١] نوبية لا ترضى غالبا للخدمة فضلا عن الزوجية فسئل ﷺعن ذلك ، فقال : لأنها خدمت والدتي فأحببت أن أكافئها بنفسي ـ أو كلاما هذا معناه .

وممن أخبرني بهذا القاضي الأجل الصالح محمد شهاب الدين ابن الأعز .

والثانية كانت شابة جميلة على ما قيل وكان لها قماش ، ولكن سيدي الشيخ لم يعلم بقماشها بل قيل له أولا ضد ذلك حتى عقد عليها .

---

(١) المُتَجَالَّةُ هي العجُوز الفانيَة التي لا إِرْبَ للرجال فِيها اشتقت من التجلي ، و هو الظهور ؛ لأنها تظهر ، و لا تحجب لانقطاع أربها من النكاح ، و يباح النظر إليها لمن لا يتهم أن يتعلق بها قلبه كالشاب ، وأما الشيخ فلا يجوز له النظر إليها ؛ إذ قد يتشوف إليها . انظر الدر الثمين ، لميّارة ، ص :٣١٥ .

وكان يذهب إليها كل يوم بآخر القرافة ، ولما ماتت سأله أهلها أن يأخذ نصيبه من إرثها فلم يأخذ وما قبل من متاعها الدرهم الواحد .

والثالثة هي زوجة الشيخ الصالح عبد النور ~ تعالى وهي التي رزق الشيخ منها الأولاد وهم محمد وهو الكبير ثم إبراهيم ثم رقية وكان معها من الشيخ عبد النور ولدان كبيران ذكر وأنثى فقيل له في ذلك أو أشير إلى أنه لا يحصل له الراحة مع ولديها فقال : أنا إنما أخذتها لأجل الولدين ـ أو كلاما هذا معناه .

وبالجملة فكان حاله غريبا يقول كل من رآه وعاشره : لم أر مثله ؛ لكونه كان في دائرة كمال [٢٧/ ب]

وكان ﷺ جامعًا بين العلم والعمل قليل المأكل كثير العمل مخالطا للفقهاء والناس بالظاهر مجانبا لهم في الباطن لا يحتجب عنهم وليس هو معهم دائم الاشتغال دائم التفكر لا يفتر عن محاسبة نفسه مؤيدا من الله تعالى في ذلك .

وكان محتملا للأذى في عرضه ونفسه وإن تأثر أحد من أهله وأصحابه أرشده إلى ترك ذلك وإلى الخدمة والأدب .

وكانت أخته من النساء الصالحات الخادمات للفقراء وطلبة العلم وحكى لي ولدها محمد وغيره أنها قالت لسيدي الشيخ يوما : رأيت كأني متُّ وأدخلت في قبري ورأيت مثل العينين يخرجان بواخا فنظرت فوجدت القِدرة وتفال العجين فسددتهما فذهب ذلك عني . فقال لها سيدي الشيخ : التزمي القيام بالطبخ للفقراء والعجن لهم فإن ذلك قد رأيتيه سببًا لنجاك .

ومن جملة عدم تأثره لما يقال عنه ما حدثني به الشيخ الصالح محمد ولد

أخته قال بلغنا أن الناس قالوا : إن الشيخ عمل الكيمياء فشق ذلك على أخته وغيرها وقالت له : يقولون عنك أنك تعمل الكيمياء وأن عبد الرحمن يبيعها لك ـ يعني زوجها ـ وأن محمدا ـ يعني ولدها ـ ينفخ لك النار فلم يتأثر بل قال : نعم نحن نعمل الكيمياء وهو التقوى والكيمياء الحقيقية تقوى الله تعالى ـ أو كما قال .

وأخبرني محمد المذكور أنه [٢٨/ أ] وجد مرة إناء من زجاج مملوءا دهنا قال فسقط منه شيء على نحاس فصار فضة فأعلم الشيخ بذلك فقال : ألقه في الخلاء وإن علمت من فعل ذلك فأخرجه ـ أو كلاما هذا معناه .

وإذ بلغه من أحد عن الفقراء شيء يكرهه وتحقق ذلك يأمر بخروجه .

وكان ﵁ كثير الرجاء لعباد الله تعالى والغالب عليه شهود وسع الرحمة

وكان يكرم الناس على نحو رتبتهم عند الله ﷻ .

وكان إذا أتى إليه بعض من يكره سببه بشيء للفقراء لا يقبله وإذا أتى له بعض الناس ممن يرضى سببه بشيء ظاهر يأمر هو بصرفه ، ويقول : الجماعة كلهم فقراء مستحقون .

وكان إذا أتى له أحد بشيء سرا يأخذه ويفرقه على من يرى أنه من أهله .

ولأجل أحواله الغريبة هذه وما شاكلها يجد أصحابه لا يقدرون على مصاحبة غيره والله أعلم .

*****